ميتافيزيقيا

الدرس الرابع عشر

القدّيس توما الأكويني

(3)

الخليقة

أعتمد بالأخص على الكتاب 2 من **الخلاصة ضد الأمم**. وأذكّركم أنّها تتشكّل من 4 كتب : الله، الخليقة، العناية الإلهية، ثمّ الثالوث والأسرار المقدّسة والأهداف العليا.
ما يهمّنا بالأخص هو العالم، عالم الأشياء، عالم المجودات وغاياتها، والله.
يعطينا الكتاب الأوّل صفات الله، وهو كتاب انبثاق **ونزول**، يذكّرنا بعض الشيء بأفلوطين وتأثيره على توما ؛ بينما يشكّل الكتاب الثاني **صعوداً** إلى المبدأ الأوّل، إلى الله كمبدأ يعود إليه بعد ذلك الكتاب الثالث.
عمل كبير لنفَسٍ طويل...

1. الخالق

في كلّ الكتاب الأوّل، يتناول توما الله في ما يخص صفاته، تاركاً واحدة منها، وهي أساسية وستميّزه من المبدأ المحض الأفلوطيني، أو من العامل الأفلاطوني أو من المحرّك الأوّل الأرسطي.
هذه الصفة هي : **الخالق**.
فهي جديدة في علم الأرسطوطاليسية وتغيّر الكثير من الأشياء، بل وتُحدث تغييراً أساسياً في الفكر، ويبقى توما في نفس الوقت مخلصاً في فكره لأرسطو.
هي، أي صفة الخالق exitus، اي خروج من النفس.
كلّ الصفات الأخرى، التي تناولها الأكويني في الكتاب الأوّل داخلية، محمولة من الله وباقية فيه. يمكننا القول بأنّ المعرفة في الكتاب الأوّل تحليلية.
يعتمد هذا الخروج على صفة إلهية، صفة الخالق، وهي، إذا أردنا، صفة خارجية لله.
من المهمّ جدًّا أن نشدّد على ذلك، لأنّه أساسي في تاريخ الكنيسة، إذ أنّها ستُدخل العقل عضوياً في أساس فكرها.

حسناً...

أقول إذاً صفة "خارجية".
وقد يسأل البعض : ما هي أهمية ذلك؟
سأقول من جديد : الكتاب الأوّل عن الله.
كان يمكن التوقّف على هذا الحد.
في دراسة الله تم تناول كلّ ما يشكّل كيانه الجوهري تقريباً، اي ما هو : لامتناهي، أبدي...
ولكننا عندما نقول كلّ ذلك، لا نضيف شيئاً على أفهوم الله، فنحن نحلّله، كما قلت : نقوم بحكم تحليلي.
ما الّذي يظهره هذا التحليل؟ كلّ ما يكوّن المفهوم.
ولكن قد تقولون لي : أين المشكلة؟؟؟
المشكلة هي هنا بالضبط : الطبيعة الإلهية، إذا ما نظرنا إليها تحلّلياً، أذا ما نظرنا غلى ما تحتويه كصفات، تعطينا هذه الصفات بالضبط : **صفاتها في نفسها**.
وماذا ؟...
بكلّ بساطة، يعني ذلك أنّ **الخلق لا يعود إلى الطبيعة الإلهية**، لا يعود إليها أن تكون **طبيعة خالقة**. إبتداءً من مفهوم الله وحده، الّذي كان أيضاً لدى أرسطو وغيره، وحتّى أفلوطين إذا ما غيّرنا المصطلحات والأسامي بعض الشيء، لا نحصل على صفة الخالق، وإلاّ خرجنا من الأفهوم – القول بأنّ الله خالق يعني **الخروج** من أفهوم الله، وحتّى من طبيعته، ويشدّد توما على ذلك.

فكيف يفعل ذلك؟
بواسطة **الإرادة**.
الخليقة، الكيان الأوّل للخليقة إذا أردتم، هو **الإمكان**.
كان يجب على الله إذاً، وأقول "يجب" بحذر، لكلّ ما سيكون لهذه الكلمة من تاريخ مليء بالتجادل... كان يجب عليه أن **يختار خلق العالم**، أن يخلق العالم باختياره.

فالإرادة خيار، الاختيار بين عدّة أشياء ممكنة، ثمّ المرور من الممكن إلى الفعلي.

2.المخلوقات

لماذا؟ قد تسألوني...
ذلك لأنّه يجب النظر إلى المخلوقات ولكن في ما يخص الله وصلتها بالله كمبدأ.
وبعبارةٍ أخرى، تنظر ميتافيزيقا توما إلى المخلوقات من وجهة نظر معيّنة ومميّزة، هي وجهة نظر **الخلاصة** : فهي كمخلوقات في علاقة مع الله، متوجّهة نحو الله، موجودة في الخلاص، غيرها عن كلّ ما تبقى. وقد عرفتم ما الّذي أتكلّم عنه هنا...
عليكم أن تتذكّروا ذلك دوماً - ولا يقوله القدّيس توما بشكلٍ واضح وصريح – عند قراءتكم لل**خلاصة**، وبالتحديد **لخليقة**، الّتي يقسمها توما إلى ثلاثة أجزاء :
-العمل الخلقي
-التمييز بين المخلوقات
-المخلوقات في نفسها.

حسناً... أي مخلوقاتٍ إذاً؟ ما هي القواسم المشتركة بين هذه المخلوقات؟
الروح، أو، وهو نفس الشيء، الروحانية.

حسناً، قد خمّنتم وعرفتم الآن : المخلوقات الّتي قد يسميها أرسطو أزلية أو عقلية، والّتي يسمّيها توما بالملائكة، ثمّ المخلوقات في عالم المادّة، أي الإنسان. ويكرّس توما الشطر الأعظم لهذا الأخير.

لنعطي الآن المزيد من التوضيحات عن هذه المخلوقات !:
الله هو المبدأ، هو علّة الكائنات، والكائنات نتيجته.
ثمّ ماذا؟
يعطينا ذلك ميّزة أساسية للمخلوقات، وعليكم أن تعرفوا ذلك وأن لا تنسوه أبداً كلّ مرّةٍ عليكم أن تتحدّثوا عن توما الأكويني :
تُدخل الخليقة، علي ان أقول ذلك أوّلا، **إضافة، صلة**... ثمّ
الإضافة، الصلة بين الخالق والمخلوق هي **إضافة أنطولوجية**، وبالتالي مستقلّة عن الزمان.
هذا مهمّ جدًّا جدًّا، وسيسمح لتوما لاحقاً بأن يجد حلاً لمشكلة مهمّة في اللاهوت.
الله هو أيضاً الضروري، الكيان الضروري.
الله موجود ضرورةً، هو في ذاته بما أنّه دائماً بالفعل.
هو دون علّة وهو علّة كلّ شيء.
في الله، الكيان والذات تتطابق. في الله **الكيان≡الذات**. ولا نجد ذلك في المخلوقات، كما تعرفون.

3. المادّة

يميّز توما بين **الخلق والتحويل**.
هناك تحويل، هناك علل تحوّل. يمكنني أن أصنع طاولة من الخشب الخ.، حتّى ولو كان علي ألاّ أنسى أن كيان هذا الخشب على أنواعه وأشكاله يعتمد بالنسبة لوجوده وبالتالي فعليته على الله.
ولكنّ العلّة الفاعلة تعتمد لكي تكون ما هي، لكي تُنتج، على علّة أخرى، وهذه العلّة لا تعتمد على أي علّة أخرى، ولا تحتاج لكي تكون ما هي إلاّ إلى نفسها.
ما الّذي ينتج عن ذلك؟
أنّ الله، العلّة الخالقة تخلق العالم وتبقيه في الكيان، ولا تحتاج إلى أي "وعاءٍ" (كما نجد في محاورة **طيماوس** لأفلاطون)، إلى شيءٍ سلبي غير فاعل، يحصل على شيء يجعله فاعلاً، متحرّكًا الخ. ليس هناك من مادّة قبل الخلق.

نتيجة أخرى :
ليس هناك من **تغيّر**، من **صيرورة**، من **حركة**، فيما يخص هذه العلّة الجديدة. كلّ ذلك إذاً، وكما قلت، أنطولوجي.

إكرّر فاكرّر : ليست الخليقة شيء يحدث، يدخل، يحصل، في الزمان، بل **إضافة، علاقة، صلة** : خالق-مخلوق.
ولهذا السبب طبعاً لا يمكن للمخلوقات أن تخلق بدورها، لأنّها، من ناحيتها هي، في الزمان.
وحتّى الملائكة والأرواح لا يمكنها أن تخلق...